من طب ابن رشد
إلى طب ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري

للدكتور الأستاذ سعيد شيبان
أستاذ طب العيون – جامعة الجزائر

تحت عنوان " كشف الرموز " مؤلف في المادة العربية
Révélation des énigmes - Un traite de médecine arabe

نشرت في باريس سنة 1874 الترجمة الفرنسية لكتاب طبيب صيدلي جزائري عاش في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. اسمه عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري[1].

وقال عنه المترجم المعقب له الدكتور لوسيان لوكلير المؤرخ المشهور للطب العربي الإسلامي والمترجم لكتاب أبي القاسم الزهراوي في الجراحة. وكتاب المفردات الطبية لابن البيطار: ان هذا الطبيب الجزائري يمكن أن يعتبر آخر ممثل للطب العربي الكبير. ويضيف أن المادة الطبية المعروضة في هذا الكتاب بقيت مستعملة في الجزائر في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي قبل أن يمنع الجزائريون من مزاولة المهنة الصيدلية على الطريقة الأصلية، وقد طبع النص العربي رودوسي قدور بن مراد في سنة 1928 في الجزائر العاصمة[2].

واتضح بعد دراسة أبي القاسم سعد الله أن النص المنشور ما هو إلا قسم من تأليف أكبر اسمه " الجوهر المكنون من بحر القانون " لما يعثر على

الأجزاء الثلاثة الأخرى[3] ونأمل أن هذا التنبيه سيساعد على الحصول على الأجزاء المفقودة من مؤلفات عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري.

إن المؤلف ابن حمادوش درس في الجزائر والمغرب الأقصى ورحل إلى المشرق في القرن الثاني عشر الهجري على هذا الأساس يكون هذا الطبيب الجزائري المرآة التي يمكننا أن تتعرف بواسطتها على مستوى الطب في المغرب وربما في المشرق في القرن الثاني عشر الهجري أي قبيل زحف نابليون على مصر وغير بعيد من احتلال الجزائر وكل ما تبع هذين الحدثين من تغيرات حضارية. وبما أن القاضي أبا الوليد ابن رشد الذي توفي في مراكش يعد آخر فلاسفة العرب درس الطب صغيرا ومارسه مدة كطبيب لأسرة أبي يعقوب المنصور بالمغرب والأندلس وألف كتابين في الطب لعبا دورا كبيرا في أوربا، وهما:

الكليات في الطب، وشرح أرجوزة ابن سينا في الطب، رأينا من المفيد أن نبحث عن مدى تأثر الطب في المغرب الإسلامي، وطب ابن حمادوش نمط منه كما أسلفنا، بالطب الذي عرفه ابن رشد وكتب فيه بالأندلس، ويمكن أن نعتبر أن الطب مثل الفقه، لم يجد العراقيل التي يقال إن فلسفة ابن رشد وجدتها لتروج من بعده عند المسلمين.

هذا مشروع بحث يتطلب عدة سنوات، ومساهمات متعددة ومتكاملة لأن آثار ابن حمادوش وغيره من جل أطباء القرون السنة التي تفصل سقوط قرطبة عن احتلال الجزائر، أي ما بين عهد طب ابن رشد وعهد طب ابن حمادوش الجزائري ما زالت مجهولة وأن هذا العرض نبذة أولى من نتائج البحث الذي بدأنا فيه نقدمه مع أمل الإفادة لمؤرخ الحضارة، والاختصاصي بفلسفة المعرفة عند ابن رشد والمهتم بفقهه على السواء.

إن مراجعنا في هذه الدراسة بالنسبة لابن رشد هي:

-الصورة الشمسية لمخطوط غرناطة للكليات في الطب (نشر تطوان 1939)[4] وقد شرعنا في تحقيقه قصد نشره مع الدكتور عمار طالبي.

-شرح الأرجوزة في الطب.

-"بداية المجتهد ونهاية المقتصد"[5].

-فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال[6].

ودراسات نشير إليها في المراجع.

أما ابن حمادوش فنستعمل ترجمة لوكلير لكشف الرموز وتعقيباته، وأطروحة قابريال كولان[7]. وأبحاث الدكتور أبي القاسم سعد الله والنص العربي المطبوع بالجزائر سنة 1982 لكشف الرموز.

قبل الشروع في عرض هذه النبذة يجدر بنا أن نتذكر أنه لا ينتظر من ابن رشد ولا من أحد غيره أن يقدم لنا تصورا كاملا للطب... يكفي الحكيم أن يثبت مما أخذه الأصوب ويقدم رأيا أو آراء غير بعيدة عن الواقع ومنسجمة مع أساس تفكيره السائد، مع هذا التحفظ وانطلاقا من مطالعتنا الأولى لتراث ابن رشد يمكننا أن نرسم لمشروع هذا البحث خطة تكاد تكون شاملة لكل العناصر الكبرى لما تفهمه حاليا، ونجد أن ابن رشد التمس الصواب وبحث عنه في كل عنصر من هذه العناصر بالنسبة لعصره.

لا يسعنا إلا أن نسرد النقاط الأساسية مرجين التفصيل والشرح إلى دراسة تابعة إن شاء الله، فلنبدأ بالتعريف الذي يقدمه ابن رشد للطب:

" إن صناعة الطب هي صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة يلتمس بها حفظ بدن الإنسان وإبطال المرض وذلك بأقصى ما يمكن في واحد من الأبدان فان هذه الصناعة ليس غايتها أن تبرئ ولابد، بل أن تفعل ما يجب

بالمقدار الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب ثم تنتظر حصول غايته كالحال في صناعة الملاحة وقود الجيوش".

إن تعريفه للصحة والمرض والهرم وحالة الزمناء والموت يفيد القارئ المعاصر وكذلك موضوعات الطب ووسائله من نافع ومضر ومن حلال وحرام، وضرورة الدفاع عن الصحة والحياة وتكوين الطبيب بداية واستمرار البحث عن الحقيقة والإيمان بالتقدم.

تطرق ابن رشد في كتبه الطبية والفقهية والأصولية إلى الأبواب التالية المفيدة للطبيب:

- المنطق وحدوده.
- العلم الطبيعي واستقلاله.

التشريح منوها على ضرورته للجراحة، ودوره في زيادة الإيمان.

- الصحة ووظائف الأعضاء والأمل الكبير في رقيه.
- علم الأمراض من أثار السموم والبيئة والأفراط والاستعدادات المرضية.
- التشريح المرضي في الجروح.
- تصنيف الأمراض وأعراضها وعلاماتها من الطر الخفي إلى المضاعفات.
- التشخيص و"تفاوت الناس فيه لتفاوتهم في الارتياض والذكاء".
- تقدمة المعرفة ودور معرفة تطور المرض وقد مكنته من تقديم رأي جديد في حصول المناعة من إصابة أولى بالجدري، وقد استعمل هذه القاعدة في التشخيص المبكر، للتفريق بين الجدري والحميات الأخرى في أطوارها الأولى.
- يقدم لنا عرضا قيما في تركيب الأدوية، ونظرة للأغذية تشتمل على فوائد عديدة على اختلاف جودة السمك حسب المياه التي يعيش فيها.

- طبائع الحيوانات المفترسة وتأثيرها على من يأكل لحومها، وحكمة الشرع الحنيف في تحريمها.
- ضرر الانبذة على الأعصاب.
- حفظ الصحة ويقول عنه أنه "أشرف جزئي الصناعة".
- الوقاية من الأمراض في حالات الاستعدادات المرضية انطلاقا من قواعد الفقه.
- غسل الإناء الذي ولغ فيه كلب.
- إبطال نكاح المريض.
- العلاج السببي ما أمكن قبل المرضي.
- ما نسميه بالطب الشرعي في الجروح والديات.

ويعرض لنا ابن رشد تلك الطريقة الحكيمة التي أمرنا بها الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه في تقويم النقص الجزئي من إصابة جزئية للعين بمقارنة حسابية لإبصار العين السليمة والعين المجروحة لبيضة تبعد إلى أقصى حد الرؤية.

فنجد في طب ابن رشد انسجاما كبيرا بين العلم والدين، بين التجربة والقياس، بين العقل والنقل في كثير من موضوعات الطب، ونجد عنده لغة عربية علمية لها طابع مميز تضاف ثروتها إلى لغة الرازي والخوارزمي والبيروني، إلى لغة ابن سينا، وأبي القاسم الزهراوي، ولغة كامل الصناعة.

يجد القارئ لكتابات ابن رشد الطبية متعة خاصة يجب أن ييسر لأكبر عدد ممكن من القراء والمثقفين الاطلاع عليها والاستفادة منها.

مع هذه الحسنات نلاحظ بعض السلبيات لما نجد إشارة إلى الأمراض العقلية في كتاب الكليات كما لم يتطرق إلا قليلا لفوائد العبادات من الجهة الطبية.

درس الأوربيون طب ابن رشد في هذا العصر، فقوتي أشاد بخصال بن رشد وناقش ردوده على الكندي، ولم يجد ما يهم في طب ابن رشد،

أما موليرو توري(8) الذي اتخذ طب ابن رشد موضوع أطروحته في الطب وترجم جزء التشريح والصحة من اللاتينية إلى الاسبانية ونوه ----- الجديدة التي وجدها عند ابن رشد في هذين البابين، و-----[9] قبله تعرض إلى موقف ابن رشد إزاء جالينوس في تصور التنفس وفهمه.

أما عند المسلمين فلم يصدر بحث طبي حوله إلى الآن.

تصور ابن رشد لمبادئ العلاج والتشخيص لا يختلف اختلافا جذريا عن تصور الرازي أو ابن سينا فهو منطلق مما يسمى الطب اليوناني الهندي المصري مرتكزا على الأخلاط الأربعة والأمزجة في الأجسام والأدوية مع استعمال العقاقير النباتية خاصة تلك التي تقرها التجربة الفردية مضيفا إلى ---- الموقف الإسلامي من المحرمات من الأغذية مطلقا والأدوية ما أمكن.

فالاعتقاد جازم من العثور على أشياء أخرى جديدة عندما تحقق وتطبع جميع تآليف ابن رشد الدينية والفلسفية والطبية..

وآثار ابن الزهر التي نوه بها وأقر جزئيات العلاج الموجود فيها ويمكن أن تعتبرها من طبه.

من أهم ما عثرنا عليه أثناء مطالعتنا لآثار ابن رشد أنه توصل إلى مفهوم طبي مهم جدا لم ينتشر ولم يقر إلا في القرن العشرين الميلادي أي 800 سنة بعد ابن رشد:

قد التمسنا في كتابه المطبوع حول الفقه المقارن "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" بعض تأويلاته لأمور لها علاقة بالطب فوجدنا أنه يعبر في هذا الكتاب عن:

1 - إمكانية العدوى وقبولها شرعا .

2 - العدوى عن طريق مادة يمكن ألا ترى تكون عالقة بإناء.

3 - العدوى عن طريق حيوان مريض غير ظاهر المرض .

وهذا كله على أساس ديني محض، ولأهمية هذا الابتكار الفكري في ميدان الطب عند ابن رشد

نرى من المفيد أن نقدمه في نصه إذ لم يشر إليه من هذه الناحية:

في شرح حديث غسل الإناء يقول أبو الوليد ابن رشد:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمر بغسل الإناء سبع مرات بعد إفراغه من الماء أن لاغه كلب أمر يتعلق بالصحة والطب. في الحديث المتفق عن صحته عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال " إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه وليغسله سبع مرات " وفي بعض طرقه أولاهن بالتراب وفي بعضها " وعفروه الثامنة بالتراب " وقد ذهب جدي رحمه الله في كتاب المقدمات إلى أن هذا الحديث معلل معقول المعنى ليس من سبب النجاسة بل من سبب ما يتوقع أن يكون الكلب الذي ولغ في الإناء كلبا فيخاف من ذلك السم. قال ولذلك جاء هذا العدد الذي هو السبع في غسله فان هذا العدد قد استعمل في الشرع في مواضع كثيرة في العلاج والمداواة من الأمراض. وهذا ما قاله رحمه الله هو وجه حسن على الطريقة المالكية.

واختلف متى يغسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب وقيل بفور ولوغه وقيل عند إرادة استعماله وإذا كان غسله تعبدا فلا معنى لتأخير العبادة وإنما يجب غسله عند إرادة استماله على القول بأنه يغسل لنجاسة لا لعبادة - قال القاضي ولا يتعلق بالاستعمال والذي أقول به في معنى أمر النبي صلى الله عليه وسلم لغسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب والله أعلم وأحكم أنه أمر ندب وإرشاد مخافة أن يكون الكلب كلبا يدخل على أكل

سؤره أو مستعمل الإناء قبل غسله منه ضرر في جسمه . والنبي صلى الله عليه وسلم ينهي عما يضر بالناس في دينهم ودنياهم فقد قال عليه الصلاة والسلام " لقد هممت أن أنهي عن الغيلة حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم شيئا ." لا لنجاسة إذ هو محمول على الطهارة بالأدلة المذكورة وإذا لا توقيت في عدد الغسل من النجاسة ...

لأن السبع من العدد مستحب فيما كان طريقه التداوي لا سيما فيما يتقي منه السم فعلى هذا التأويل لا ينبغي شرب الماء الذي ولغ فيه الكلب لما أرشد النبي عليه الصلاة والسلام إليه مما يتقي منه .

وقد اعترض عليه فيما بلغني بعض الناس بأن قال أن الكلب لا يقرب الماء في حين كلبه وهذا الذي قالوه هو عند استحكام هذه العلة بكلام لا في مبادئها وفي أول حدوثها فلا معنى لاعتراضهم.

وأيضا فإنه ليس في الحديث ذكر الماء وإنما فيه ذكر الإناء ولعل في سؤره خاصية من هذا الوجه ضارة أعني قبل أن يستحكم به الكلب ولا يستنكر ورود مثل هذا في الشرع ". من هذا يظهر أن الوعاء يمكن أن يكون مضرا بمادة غير ظاهرة كما أن الكلب المريض يمكن أن يكون به سؤر ضار قبل أن تظهر علامات المرض عليه، وهذا يمكن أن يتكون منه المفهوم العصري للناقل "السليم".

هنا المفهوم الذي يشترك فيه ابن رشد الجد والحفيد لم يشر إليه أحد من المؤرخين للطب وربما يكون السبب أن هذه الفكرة نشرت في كتاب ـ... ألا يكون تعصب أوروبا في وقت ما على الأقل منعها ومنع البشرية معها من الاستفادة من هذا التفكير المبكر...؟ أما العالم الإسلامي... كتب الفقه هل يقرؤها غير الفقهاء ؟ نحن لا ندري عسى البحث يطلعنا على الجديد، لو نوقش هذا الكتاب في بيئة علمية كافية أو شرح لأفاد واستفاد منه الكثير

لا نعرف شيئا كبيرا عن آراء ابن حمادوش في أسباب الأمراض لأن الجزء المتعلق بها لما يصل إلينا، ولكنا نراه في كشف الرموز يستعمل الطب العربي الإسلامي الذي درسه في كتب ابن سينا خاصة الأرجوزة في الطب في شرح ابن رشد لها وتصوره يكاد يكون شبيها بتصور ابن رشد وابن سينا للطب.

نلاحظ أن تكوينه – واهتماماته على قدر ما يظهر من تأليفه التي عرفنا على عناوينها الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي اطلع على جزء من رحلة ابن حمادوش – تكوين يشبه في أساسه تكوين ابن رشد واهتماماته مع مراعاة الفرق بين درجة الطبيبين وعصرهما .

إن ابن حمادوش كان يهتم بالعلوم الأساسية، بالطب وبالصناعات ويهتم بكتب الفقه والمنطق ويجالس العلماء ويرحل في سبيل العلم وقد ألف كتبا عديدة تعتني بشتى ميادين المعرفة فانا نجد في كتابه المطبوع "كشف الرموز" أنه اطلع على كتاب بالتركية في الطب "غاية البيان" ونجد أدوية جديدة لم تكن معروفة في زمان ابن رشد وهي أدوية استعملها الأوربيون مثل الدواء ضد السفلس وكانت تسمى في الجزائر المرض الكبير أو "مال فرانصة" (Mal Francis) والدواء صد حمى المستنقعات وهي الكانكينا وأدوية أخرى أقرتها التجربة في عهد داود الأنطاكي الذي استقى ابن حمادوش الكثير من كتابه "التذكرة".

إن ابن حمادوش استنسخ في مقدمة تأليفه حول العقاقير صفحات من كتاب القانون لابن سينا ولم يخف ذلك بل نبه إلى أنها بحروفه، وقد درس ابن سينا وإقليدس وجالينوس وابن البيطار وداود الأنطاكي و "غاية البيان" "بالتركية" والدمياطي وابن ماسويه والشريف الإدريسي والتلمساني والزروق .

وقد ألف في المنطق " الدرر على المختصر" وهو شرح مختصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي.

- وفي النحو له (السانح) وهو شرح على ألفية ابن مالك.
- وله ديوان في شعر الغزل.
- الروزنامة.
- علم الفلك.
- الأسطرلاب.
- رصد الشمس.
- صورة الكرة الأرضية.
-علم البلوط وهو معرفة الطرق البحرية .
- الجوهر المكنون في الطب.
- علم التكعيب.
- علم البونبة.
-تأليف في الميزاج وتأليف في الطاعون.

نجد أن عدد الأدوية عنده يقرب من الألف وعند ابن رشد 211 دواء،وعند البيروني 1141.

نعطي هذه الأرقام مع التنبيه على الفرق بين روح التآليف الثلاثة. فالكليات في الطب على حد تعبير ابن رشد كتبه كاستقساط للصناعة. والصيدنة كتبه البيروني كجرد للمادة الطبية الهامة في زمان. وكشف رموز جمع فيه ابن حمادوش ما يهم من أدوية عند المسلمين والأوروبيين في القرن الثامن عشر الميلادي.

ما هو مدى تأثر ابن حمادوش مباشرة أو بطريق غير مباشر بتآليف بن رشد.

لا يمكن أن نعرف ذلك إلا بعد نشر آثارهما ومع ذلك فابن حمادوش امتنع عن استعمال الخمر في الدواء مثل ما امتنع ابن الرشد.

ويلح ابن حمادوش على أهمية التجربة والاطلاع على الجانب العملي في اختيار الأدوية وإعدادها. ونراه متفتحا لكل ما يصل إليه من معلومات في الطب والصيدلة وهو مستقل في حياته، يعيش من عمل يده وبيع الكتب مقبلا على الحياة الصعبة الكريمة

بما أنه عاش برهة من الزمن غير معروفة في مصر ربما يحصل الباحثون على مخطوطات له تمكننا من دراسة ومعرفة أكثر للتسلسل الحضاري ومعوقاته في العالم الإسلامي مدى القرون التي تفصل بين بداية الهزيمة في الأندلس وانطلاق الحملة الاستعمارية المباشرة في شمال إفريقيا من طرف الفرنسيين .

وبفضل القرآن الذي حفظ اللغة العربية تمكن ابن حمادوش من فهم الأرجوزة ودراسة طب موضوعي بعيد عن الخرافات التي طغت من بعد على العقول بسبب الجهل والفقر والمنع الاستعماري.

نجد عند ابن حمادوش طبا معقول مبنيا على التجربة متفتحا، فقد أخذ عن علماء الجزائر والمغرب الأقصى حيث أعجب خاصة بالحكيم عبد الوهاب أدراق طبيب مولاي إسماعيل وأولاده وقد نشرت قبل ابن حمادوش بخمسين سنة أرجوزة في الحب الإفرنجي مثلما أخذ عن علماء مصر.

هل يمكن أن نحلم حول هذا التفتح وثماره لو... تمكن ابن حمادوش من حياة مستقرة من الناحية المادية ولم يضطر إلى التجارة ليعيش، ولو وجد من يماثله ؟

مما نستخلصه من هذه الدراسة .

1 - ضرورة القراءة الدقيقة لكتاب "الكليات" ومقارنة المادة الطبية فيه خاصة مع المادة الطبية الموجودة في "كشف الرموز".

2 - ضرورة التبادل بين ميادين الاختصاص لكي نتمكن من محو ما يطغى علينا من جهل بتراثنا العلمي والديني على السواء. إذ لم يفرق علماؤنا بينهما، وهو لحسن حظ المعرفة كما رأيناه.

كشرط أساسي للقيام بهاتين المهمتين لا بد من بذل الجهد في استعمال اللغة العربية رغم كل الصعوبات التي تجابه جيلنا من المتخرجين من الجامعات الأجنبية.

المراجع:

1 - كشف الرموز: KACHEF ER ROUMOUZ

Révélation des énigmes d'Abder-Rezzaq Eddjezaïry

Traité de matière médicale arabe d'Abder-Rezzaq l'Algérien

Traduit en arabe par le Dr. Lucien Leclerc

Baillère, Paris, 1874

2 - كشف الرموز في بيان الأعشاب للشيخ عبد الرزاق بن حمدوش الجزائري، المطبعة الثعالبية، لرودوس قدور بن مراد التركي، الجزائر 1347 هـ 1928- م.

3 - الأصالة عدد 1396-38 هـ1976-م، 24-2، أبو القاسم سعد الله، عبد الرزاق ابن حمدوش الجزائري ورحلته (لسان المقال)

4 - نسخة شمسية من مخطوط الكليات في الطب لأبي الوليد ابن رشد – تطوان – 1939.

QUITABLE EL KULIAT

Libro de las generalidos

Artes grafias Busca-Larrache

5 - بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الفكر، ج.1، ص.22.

6 - نفس المقال .. لأبي الوليد ابن رشد، نشر وتحقيق، الدكتور الشيخ بوعمران، الجزائر 1977.

7 - Docteur Gabriel Colin

Abderazeq El Djasaïri , Thèse Université d'Alger, 1905

8- Torre – La Sciença Medicena Del Averro. Madrid.

9- Bürgel.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
- وحدة الرغاية - الجزائر
2017
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie-
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (023) 96 56 10 /11

الإيداع القانوني : 2005-1513
ISSN : 1112-65-23 ردمد